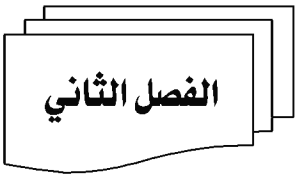

دور الإسلام والمسيحية في نشر لغتي العربية والإنكليزية

للدين السماوي دورٌ هامٌ في نشر اللغة التي نزلت بها الكتب السماوية، وكان وجود الدين سببًا لتدوين الكتب التي فيها الشرائع، والأحكام، خوفًا من أن تذوب أسًى في أمواج الاضطهادات. ولقد كان الدين الإسلامي أداةً لنشر اللغة العربية. كما كانت اللغات الأوروبية آلة لنشر المسيحية.

كانت اللغة العربية محدودة النطاق قبل ظهور الإسلام، إذ سبق أن كان المتكلمون بها قبل الإسلام من ينتمون إلى العرب دمًا فقط، أو من سكنوا في بلاد العرب. وبظهور الإسلام تعربت ألسنة جميع المسلمين بدءاَم بقراءة القرآن الكريم والسنة النبوية وهلم جرًا.

وأما المسيحية والكتابان اللذان يترصّد المبشرون خلفهما لنشر دعوتهم، التوراة والإنجيل، فلم يُكتبا أصلاً باللغة الإنكليزية ولا بالفرنسية، بل كُتبا بالعبرانية، حتى الزبور المنزَّل على سيدنا داود صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. إلا أنه لم تكن اللغة العبرانية مما كُتب لها النجاح في الشهرة لعدم اهتمام المبشرين بها، ولوجود الخلاف الأصلي في اللغات التي كَتَبَ بها الكُتّابُ الأربع الإنجيلَ من بعد رفع عيسى عليه السلام. فقد كتب "مَاتِيُ" إنجيله بالعبرانية، وكتب "مُرْقُسْ ولُوقا" إنجيليهما

باليونانية، ثم كتب "يُوحِنّا" بعدهم إنجيله؛ كتبه كل من الأربعة في مختلف الأماكن والأزمان ۞.

ولِما كان في أصل اللغات التي كُتب بها الإنجيل من الخلاف، اتخذ المبشرون في كل القبائل الأوروبية لغتهم آلة لنشر التبشير، فذبلت أزهار الأصل وهم في العَمَه ينظرون، وتفتحت أزهار الفروع، فبدأت ترسل عطرها إلى جميع أنحاء العالم ليشمّها من شاء مع التبشير، وليكتفي من شاء باتخاذه إحدى هذه اللغات لغته الثانية التي تُصرع لغته الأمّ. إما لتقضي عليها أو لتبقيا جنبًا إلى جنب تتعايشان معًا من دون أن تغلت إحداهما الأخرى.

▪ الإسلام واللغة العربية

وُجدت اللغة العربية قبل وجود الإسلام المحمدي صلى الله عليه وسلم، وكانت هي لسان التفاهم قبل ظهور الإسلام. وكان عدد الناطقين بها قبل الإسلام قليلاً، وثقافتهم محدودة، ومروءتهم محصونة، وشهرتهم محصورة، ولما جاء الإسلام، سطع على العرب نوره، فحوّلهم من الردى إلى الهدى.

۞ آدم عبد الله الألوري: تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم، المرجع السابق ص١٠٠، وانظر كذلك المنجد، قسم الأعلام، الطبعة السابعة والعشرين، ص ٧٦.

القرآن الكريم ـ دستور الإسلام ـ كتاب نفض الغبار عن وجوه العرب ولغتهم، وجعلهم علمًا في عيون المسلمين الأعاجم، وجعل لغتهم لهجة في العبادة، ولم يكن ثمّة لكتابٍ أثر في الناس مثل القرآن الناشر للغة العربية. وجاء في الوسيط شاهد على ذلك: " بأن القرآن الكريم قد أثر في اللغة العربية ما لم يؤثره أي كتاب سماويًّا كان أو غير سماوي في اللغة التي كان بها، إذ ضمن لها حياة طيبة وعمرًا طويلاً، وصانها من كل ما يشوه خلقها، ويُذوي غضارتها. فأصبحت هي اللغة الحية الخالدة من بين اللغات القديمة التي انطمست آثارها، وصارت في عداد اللغات التاريخية الأثرية. وأنه قد أحدث فيها علومًا جمّة وفنونًا شتّى، لولاه لم تخطر على قلب، ولم يخطها قلم. منها اللغة، والنحو، والصرف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، والبيان، والأدب، والرسم، والقراءات، والتفسير، والأصول، والتوحيد، والفقه" ۞.

نعم، هذه الفنون كلها ما كانت إلا وصاية للعرب، ووليدة من القرآن، وهي وصاية للعرب من حيث كونها آلة تسديد الألسنة وأداة تنوير الأذهان التي تحصنها من الوقوع في الأخطاء والألحان. وهي وليدة من القرآن لأنه لولاه لما عرف العرب القواعد، ولا التجويد، ولا البيان، ولا البديع.

۞ أحمد الإسكندري ومصطفى عناني: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه. الطبعة السادسة عشر، مطبعة دار المعارف بمصر {١٣٣٥هـ/١٩١٦م} ص ١٠.

ذلك، واللغة العربية بنسبتها إلى الإسلام كمنزلة الدخان من النار، بل كمنزلة الروح من الجسد، ولا يمكن انفصال إحداهما عن الأخرى.

ولقد حاول بعض المستشرقين تجريد الإسلام عن العربية، وحاولوا إفهام الناس بأن الإسلام دين والعربية لسان كبقية اللغات الأوروبية الراقية، حيث قالوا في ذلك ما معناه:
" إنه من الواجب أن يترجم القرآن إلى لغات ليفهمه جميع الشعوب حتى لا يحتاجون إلى اللغة العربية ليتوصلوا بها إلى فهم القرآن وقواعد الإسلام، بل يكفي المسلمين أن يأخذوا مبادئ دينهم من كُتب مبسطة غير معقدة في سائر اللغات المختلفة، وأنه لا يلزم كل مسلم أن يتعلم العربية من أجل الإسلام، فليست العربية للإسلام. ولقد كانت اللغة للعرب قبل الإسلام، وفي العرب اليوم من هم ليسوا مسلمين. فللإسلام أسوة في النصرانية وغيرها في الاحتفاظ بالدين مجردًا عن اللغة الأصلية لهذا الدين.... إلخ" ۞.

هذا بعض اقتراحات المستشرقين ينطحون بها الإسلام ولغة التعبد به، ليبلبلوا أذهان المسلمين. إلا أن الإسلام يأبى، وإن تُرجّم القرآن إلى عدّة الألسنة، واستبدلوا لسان كتابة الفقه،

۞ آدم عبد الله الألوري: مشاكل التعليم العربي في نيجيريا، وهو أوراق محاضرات في حدود اثنتي عشرة صفحة. من منشورات مطبعته {مطبعة الثقافة الإسلامية} بأجيجي نيجيريا. بدون تاريخ. ص٤.

والشرائع، والقواعد، بلسان غير عربي، لما صرّفهم ذلك عن تعلّم اللغة العربية. لأن العبادة كالصلاة، وأعمال الحجّ، لا تصحّ إلا بالتلهج باللغة العربية. ففي الصلاة قراءة القرآن. وفي أركانها بعض التسبيحات والأذكار. وفي أعمال الحجّ مثل ذلك. فلا يمكن أبدًا أن يتناسى المسلم اللغة العربية أو يتغافل عنها، لأن العبادة بغيرها لا تتمّ.

وأما المسيحية، فليست لها صلاة بصفتها العامة مثل ما في الإسلام، وظاهر كل ما فيها حسب ما نرى لدى المسيحيين في نيجيريا أناشيد وأدعية، ومُكاء وتصدية. حيث لا يطالبهم كل ذلك ملازمة لغة معينة، كما كانت الحال عند المسلمين في جميع العالم الإسلامي أن يدعوا الله لحوائجهم الخاصة في دبر صلواتهم، أو في أي وقت شاءوا بأية لغة ينطق كل منهم بها. وهذا الدعاء لا يمتّ بصلة بالعبادة العينية، فربما كان أجر ذلك كثيرًا للعاجل لا للآجل.

أما نيجيريا والإسلام واللغة العربية، فدولة يسعى العلماء أن يكون الإسلام فيها دين شعوبها، والعربية الفصحى لسان نصف أو ثلث بنيها، لذلك كان علماء الإسلام في نيجيريا يسعون في تأسيس المدارس العربية الإسلامية، ويتسابقون في الدعوة والإرشاد؛ فكان الإسلام المعروف في أول الأمر بالدين الهوساوي أو الفلاني، أو الملاوي، قد أصبح أخيرًا دين شعوب

نيجيريا كلهم، حتى وقد وجد بابًا واسعًا مفتوحًا لديه في بلاد إيبَوْ، كما مرّ بنا الكلام عليه في الفصل الأول، والحمد لله على ذلك.

وعلى كل حال، فمنزلة اللغة العربية في الدين الإسلامي كمنزلة الروح في الجسد، لا يستغني واحد عن الآخر، فالإسلام للعربية، والعربية للإسلام.

▪ المسيحية واللغة الإنكليزية

لم تولد اللغة الإنكليزية حينما تعيش النصرانية، ولم تعرف إنكلترا التي كانت مركز الإنكليزيين بهذا الاسم حتى سنة ٤٥٠م. وأما الإنكليزية كلغة التحدث، فلم يعرف لها حدّ محدد إلا أنها صادفت حظّ الكتابة بها منذ سنة ٦٩٠م، وذلك منذ عام ٦٥٧م بعد رفع المسيح عيسى المسند إليه المسيحية أو النصرانية عليه الصلاة والسلام. وهو بداية مطلع النصف الأخير من القرن السابع الميلادي، ويوافق ذلك عهد خلافة بني أمية، وذلك في السنة الثامنة والستين لهجرة الرسول ﷺ، وبعد أن كان القرآن الكريم مدوّنًا بما لا يقل عن سبعين عامًا قبل هذا التاريخ. ولا يدخل في ذلك شكّ أن اللغة العربية كانت لغة الكتابة والقراءة للشعر والنثر العربيين قبل الإسلام، مما يؤكد

بأن للغة العربية قِدَمًا على اللغة الإنكليزية نطقًا وكتابة، ومما يشير إلى أن للعرب ثقافة لا بأس بها من حيث الكتابة والقراءة قبل الإنكليز.

المسيحية والعبرانية تَوْأمَان، لأن بها نزلت أشهر الكتب السماوية قبل القرآن، وبها نزلت التوراة، والإنجيل، والزبور. وكانت هي لغة سيدنا إسماعيل عليه السلام قبل تعرُّبه، وقد سبق أن عرفنا أن اللغة العبرانية، والسريانية، والأشورية، والفينيقية، والحبشية، والبابلية كلها كانت أخوات للغة العربية، فالتَقَمَ منها الدهر، وظلت الباقية ككُوَيْكِبَات تحت ضوء شمس اللغة العربية الوهّاج.

وأما المسيحية والإنكليزية، فليس بينهما صلة أو تعلق قط، فهي لغة حديثة العهد بالنسبة للمسيحية، وهي بمثابة القلنسوة للرأس، أو بمثابة الحذاء للقدم. ومن تجادله في ذلك نفسه، فليذهب مثلاً إلى باريس، أو إلى الداهومي، أو إلى تَوْجَوْ، أو إلى غير هذه البلاد مما كانت لغتهم الرئيسة فيها هي الفرنسية، ويدخل كنائسها ليرى هل كانت الإنكليزية هي اللغة المستعملة فيها بعد اللهجات المحلية أم الفرنسية ؟.

والجواب أنه لم تكن الفرنسية هي اللغة المستعملة في كنائس المسيحيين في نيجيريا، وغانَة، مثلاً بعد اللهجات المحلية، فإنه

ليبعد إذًا أن تكون اللغة الإنكليزية هي الأخرى المستعملة في كنائس المسيحيين في البلاد التي كان المستعمرون فيها فرنسا.

وفرنسا أشد حرصًا على لغتهم وأكثر تعصّبًا من الإنكليز، والإنكليز غالبًا يستعمل اللينة، والرخاوة، والحكمة، لجذب القلوب. في حين كان فرنسا يستعمل الشدة، والقسوة، والسطوة، لقهر القلوب. وقد أشار إلى هذا السلوك البروفيسور عليّ بَابَاتُنْدَيْ فَافُنْوَا إبّان استعمار الفريقين بقوله:

" ومن الجدير بالذكر، أن الحكومة البريطانية قد أجرت اتفاقا على تحكيم شمال نيجيريا بواسطة الأمراء المسلمين، حيث لم يُشَدِّدوا عليهم في التعليم الإسلامي في المدارس القرآنية في المنطقة. مقابلاً لزملائهم فرنسا في السنغال، حيث أجرى الحاكم "كَمِلْلْ غَايْ" قرارًا في السنغال سنة ١٩٠٣م بأنه ليس من الحق أن تفتح بها مدرسة قرآنية بدون إذن الحكومة "[1].

ومن المعروف أن أكثر من استعمروا القارة الإفريقية هم الفرنسيون والإنكليزيون. ومن الواضح أن كلاً من الفريقين كان يحرث لنفسه، ويستريح حيث ترحب له به الأرض. وأن لكل منهما هدفه الخاص يودّ أن يحقّقه بتجربته وقريحته ومهارته، وكان تحت هذا الهدف الاستعمار، والتجارة، والبشارة.

---

[1] تاريخ التربية في نيجيريا، المرجع السابق ص ٦٧.

المبشرون جعلوا المسيحية حرباء تتملق وتتلون بأية لغة متطوعة لها، فهذه الإنكليزية تطوعت للتبشير الصليبي في إنكلترا، ونيجيريا، وغانه، وأمريكا مثلاً، وفي البلاد التي تحت حضنة الاسعمار البريطاني. وهذه الفرنسية تطوعت لنشر المسيحية في باريس، والنيجر، والكاميرون، والداهومي، والسنغال مثلاً، وفي جميع الدول التي تكبّس عليها الاستعمار الفرنسي. وهذه اللغات المحلية في كل بلاد تنوب عن اللغتين {الفرنسية والإنكليزية} لأداء مستحبات العبادة المسيحية في الكنائس من دون أن تكون هناك لغة معينة تستعمل للعبادة عند المسيحيين في العالم النصراني، مقابلاً بما كان للمسلمين من اللغة العربية للعبادة أو تتزود المسيحية بنشر الأناجيل إلى جميع أنحاء العالم بلغة أصلية لها معينة، يعرفها بها كل من المسيحي والمسلم واللادينيّ في العالم بأنها هي لغتها الرسمية، كما كانت اللغة العربية لغة رسمية للقرآن.

لا وألف لا ! هذا لا يمكن أن يتفق المسيحيون على لغة يتعبدون بها أو يكتبون بها الإنجيل، إذ الأناجيل اليوم ليس لها أصل من حياة المسيح عليه السلام، وقد كان أول من كتبه، كتبه بعد أربعين عامًا من رفع المسيح عليه السلام، ثم كتبه بعده ثلاثة آخرون في مختلف الأماكن والأزمان ۞، فنجم فيها من الأزل

۞ أمر كتابة الإنجيل باللغة المختلفة وفي الأماكن المتنوعة من الأصل شائع، راجع بداية هذا الفصل لمزيد من البيان.

الاختلاف، فنمى ذلك الخلاف إلى أن بلغ القمّة عند القبائل الأوروبية، فكانت لغات هذه القبائل أخيرًا أداة نشر المسيحية في أقطار العالم كله. حيث كانت المسيحية بالذات جسدًا يتنفس في كل بلد دخلت بروح لغة المبشرين بها إلى هذه البلاد.

لذلك كانت اللغة الإنكليزية بمثابة القلنسوّة للمسيحية، فإن شاءت تَقَلْنَسَتْها في هذه البلاد، وإن شاءت تقلنست غيرها في بلاد أخرى، بخلاف اللغة العربية للإسلام.

ثم إن اللغة العربية وُجدت قبل إسلام محمد ﷺ ، ولم تكن الإنكليزية مولودة قبل المسيحية، وقد كانت العبرانية لغة أهلها قبل ظهور الإنكليزية.

▪ علماء الإسلام في نيجيريا

علماء الإسلام في كل مكان بمثابة الملح في الدسم ما داموا ملتزمين بشرائع كتاب الله وسنة رسوله، ويكونون بمنزلة المرارة أو السمّ فيه ما داموا راغبين عن دعائم الدين الإسلامي.

علماء الإسلام الخيرة يُعرفون بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا، تراهم متقين خاشعين الله تعالى في الْخَلْوة والْجُلْوة، يُميّزون بالقناعة، والورع، والزهد في الدنيا، يحسبهم الجاهل أشقياء من شبه الفقر الذي ربّما قد ألحقته بهم القناعة، والورع، والزهد، وهم في أنفسهم أغنى العباد؛ ذلك لتمسكهم بالحديث القائل: "ليس الغنى من كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس".

وهم على صفاتهم الْخُلُقية ذوو النفوس الأبية، لا يكترثون بالرؤساء الظالمين، ولا يتمشَّون مع أوامر الوزراء الغاشمين، تراهم فذوذًا متعصبين بآرائهم وعقائدهم الإسلامية البحت المستمدة من قال الله تعالى وقال رسوله صلى الله عليه وسلم.

فطوبى لعالم مقتد بالأئمة والعلماء، واعتزازًا بشجاعهم أمام الملوك والأمراء إجلالاً لمكانتهم كالعلماء واعتزازًا بشخصيتهم. وهذا هو طاؤوس اليماني التابعي الجليل الذي اعتزّ بنفسه أمام الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي الذي قصد مكة حاجًّا،

واستدعى أحد الصحابة أو التابعين، فلما قدم إليه طاؤوس، خلع نعله على بساطه، وسلم عليه بقوله السلام عليك يا هشام. ولم يكنه، ولم يخضع له قط، فغضب عليه هشام. وهو مع ذلك لم يجد طاؤوس يخفض له الجناح، بل ظل يخوض غمار المجادلة معه طول بقائه عنده، ثم وعظه بالعدل في رعيته، ثم انصرف.

وهذا أيضًا هو الإمام أبو عبد الله، مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، وسيد فقهاء الحجاز الذي أبى أن يذل نفسه أمام الخليفة هارون الرشيد الذي قدم مكة حاجًا، والمدينة زائرًا. ولما بلغه أمر مالك، أرسل إليه ليقرأ عليه موطأه في العراق، فقال مالك لرسوله: " أبلغ أمير المؤمنين بأن العلم يزار ولا يزور، وأن العلم يؤتى ولا يأتي ". فذهب إليه أمير المؤمنين ليسمع منه الموطأ، وقد احتسّ بالسلطنة، فطلب من مالك أن يتخلى معه عن الناس للدرس، فأنكر عليه مالك. ثم جلس على المنصة، فمنعه مالك من ذلك إلا أن يخضع للعلم بالجلوس مع الناس على الأرض.

وذاك هو الإمام الصابر المحتسب أحمد بن حنبل الشيباني، طلب إليه الخليفة المعتصم إلى القول بخلق القرآن، فامتنع من ذلك، فضربه سبعة وعشرين سوطًا إلى أن سال منه الدم وأغمي عليه.

وهذا هو أيضًا العلامة النحرير المخترع الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، واضع علم العروض الذي ارتفع عن الذلّ من رفضه أن يكون مؤدبًا لابن سليمان بن حبيب بن المهلب، وال على فارس والأهواز، وكان له راتب على سليمان، فأرسل إليه يطلب حضوره، فأخرج لرسول سليمان خبزًا يابسًا، وقال له: "ما دمتُ أجد هذا، فلا حاجة بي إلى سليمان" .

فقال الرسول فما أبلغه عنك ؟ فقال الخليل:

أبلـــغ ســـليمان أنـــي عنـــه في ســـعة
وفي غنـــىً غـــير أنـــي لـــست ذا مـــال
شُـــحًّا بنفـــسي أنـــي لا أرى أحـــدًا
يمـــوت هـــزلاً ولا يبقـــى علـــى حـــال
الـــرزق عـــن قـــدر لا الـــضعف ينقـــصه
ولا يزيـــدك فيـــه حـــول محتـــال
والفقـــر في الـــنفس لا في المـــال نعرفـــه
ومثـــل ذاك الغنـــى في الـــنفس لا المـــال

فلما بلغ سليمانَ هذا، قطع عنه الراتب، فقال الخليل:

إن الـــذي شـــقّ فمـــي ضـــامن للـــرزق حتـــى يتوفّـــاني
حـــرَمتني مـــالاً قلـــيلاً فمـــا زادك في مالـــك حرمـــاني

وقد بلغ سليمانَ أيضًا هذا القول، فكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبه، فقال الخليل:

وزلـــة يكثـــر الـــشيطان إن ذكـــرت
لهـــا التعجـــب جـــاءت مـــن ســـليمانا

لا تعجـــبن لخبـــز زلّ عـــن يـــده
فالكوكـــب الـــنحس يـــسقي الأرض أحيانـــا

هذا ما جرى بين بعض أئمتنا وعلمائنا الهداة وبين بعض الخلفاء والوزراء والموالي البغاة. فقد اعتز هؤلاء العلماء بما آتاهم الله من العلم، وامتنعوا من أن يذلوا أنفسهم أمام ملك أو وزير من أجل ما يُقدّم إليهم من هدايا على أثر القائل: "من جعل نفسه نخالة، أكلته الدجاجة". وكان القرآن يقول: {... أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} ۞۞.

نعم، هذا الذي نراه من الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر من العلماء، ويبقى في كل قطر ومصر أفذاذ من أمثال هؤلاء العلماء الخيرة، ويوجد في نيجيريا من يكونون على شاكلتهم، ولكنهم قليلون. وأمثال هؤلاء العلماء هم من يهتمون بفتح المدارس لقصد إزالة الأمية من الشعوب، وإن

۞ محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين {المجلد الثالث} المرجع السابق ص ص ٧٨١ ٧٨٣

۞۞ سورة النساء آية ١٣٩.

كان منهم من لا يرزقون بفتح المدارس بل يواجهون وظائف إسلامية أخرى مثل الوعظ والإرشاد بدون مطالبة الناس أجرًا.

أما الأشرار من علماء الإسلام، فتعرفهم بتودّدهم للمادة، ولتعرفنّهم في لحن القول من نحو قولهم "دُرْ كَمَا يدور الدهر"۞ أو يستشهدون بقوله تعالى: { الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}۞۞. فيؤثرون الحياة الدنيا الفانية على الآخرى. وهم من يشتري رؤساء الدولة وملوكها ووزراؤها ألسنتهم بالسيارات، والأموال، والهدايا، فيصيرون عُبَّاد العباد في الاشتغال بأمورهم في دبر صلواتهم، ويتهجَّدون ويسحرون لمصالحهم، وينصرفون عن قول الحق كيلا يعصون الرئيس لهم الرازق، ويضربون عن الله الرزَّاق صفحًا الذي هو المالك ليوم الحساب.

فكيف ينطق هؤلاء بالحق والصدق وقد ملأوا جيوبهم وأفواههم بالمال... قال الشاعر:

قالت الضفدع قولاً حقّقته العلماء

في فمي ماءٌ وهل ينطق من في فيه ماء

۞ هذا قول الحكماء وتتمّته: "ومن لم يَدُرْ مع الدهر يدور الدهر عليه". وهي حكمة تطابق كل الطبقات. فللعلماء أن يصرفوها كيف شاءوا، وللمفسدين أن يستعملوها أنى شاءوا، وللصوص أن يستدلوا بها متى شاءوا، وللشرامطة {الزانيان} أن يضافرن بها وجهتهن لتُعَرْبِدْنَ في الشوارع، وليملأن بها البر والبحر بالفساد، فقد قال الشاعر:

ألا إن أخلاق الفتى كزمانه فمنهم بيض في العيون وسُودُ

۞۞ سورة الكهف آية ٤٦ .

وتقول آية أخرى: { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ }. سورة التغابن آية ١٥.

وأمثال هؤلاء العلماء هم من يبيعون إسلامهم للكفار، ومروءتهم للفجار، يصيّرون إسلامهم إظلامًا، ودينهم طينًا، والتّبر تربًا، والسين ظاءً، ولأمثالهم أقول:

وما أسلموا الله ولكن أظلموا
بالظاء للسين عكسه لعدول

ومن ذا الذي ينهى الزيّات إنارة
والدنيا لديكم عصرها بغفول ۞

وأضراب هؤلاء، هم الذين يبيعون إيمانهم والإسلام واللغة العربية بدراهم معدودة حتى هان الإسلام والمسلمون ولغة القرآن بين أيدي الأمراء والوزراء، بل لدى أنصاف الناس جميعًا. ولو احتذى هؤلاء العلماء بأمثال الأئمة والعلماء الزهاد النساك المذكورين لكان خيرًا لهم وأفضل، ولكنهم خانوا الله فأمكن منهم. وهم قوم يعرضون عن الإسلام، ولا يهمهم منه إلا صورة الصلاة والصيام، وودّوا لو ينحف الإسلام ليسمنوا، أو يموت ليحيوا، وأمثال هؤلاء ليس لهم يد في إنشاء المدارس ولا نية في رفع لواء الإسلام والعربية في ديارهم، ولا في بيئاتهم؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

۞ ديوان المؤلف، عباس زكريا القارئ.

■ المدارس العربية في نيجيريا

وإن كنا في حاجة إلى التحدث عن المدارس العربية في نيجيريا فإنما يهمّنا الاستفاضة في الحديث على المدارس الحديثة التي ساعدت كثيرًا على نشر اللغة العربية، والتي كانت تقدم لطلاّبها الشهادات الإجازية للوظائف والتدريس في المدارس، حتى كانت لطلاب اللغة العربية مرتبة لا بأس بها عند الحكومة اليوم.

وعندما نتعرض للحديث في تطورات اللغة العربية في المدارس الحديثة، لا يجوز أن نتغافل حركة المدارس القديمة التي هي اللبنة الأولى، والوالدات للمدارس الحديثة التي نستقي منها اليوم فنقول:

المدارس العربية في نيجيريا قديمة قدم الإسلام فيها، إذ الإسلام لا يدخل قرية إلا ومعه التعليم، لذلك كان أول ما أنزل الله على رسوله ﷺ قبل أن يأمره بالعبادة له هو التعلّم، وهو قوله علت قدرته: {اقرَأ باسْمِ رَبّكَ الذي خَلَقَ...}۞ وجرت السنة الإسلامية على هذا الأساس إلى التعلم قبل العبادة.

ولا شك في أن هؤلاء الذين أدخلوا الإسلام إلى هذه البلاد من جهة بَرْنَوْ في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، كانوا قد درسوا أولئك الذين أخذوا الإسلام من أيديهم شيئًا بسيطًا من

۞ سورة العلق آية ١.

القرآن الذي هو أساس اللغة العربية. ولا مراء في أن الونغراويين الذين حملوا نور الإسلام إلى مدينة كَنُوْ في بلاد هوسا في القرن الرابع عشر وفي عهد الملك عليّ يَاجِي، كانوا قد حملوا معهم الحروف العربية، حيث عَيَّن منهم الملكُ إمامًا ومؤذنًا في المسجد الذي بناه ذلك الوقت، وحيث عَيَّن زعيم القافلة عبد الرحمن الزيتي قاضيًا في المدينة. ولا شك في أن هؤلاء قد وضعوا اللبنة الأولى للتعليم العربي في ذلك الوقت في نيجيريا ۞، وإن اندرست آثار الذين أدخلوا الإسلام إلى بَرْنُوْ قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون.

وهذا عصر الملك محمد رُمْفا الذي هبط فيه في مدينة كَنُوْ العالم الجليل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي عمل التدريس في كَنُوْ وكَتْشِنَا، وألف للشعب الهوساوي ودرّس ومارَس حتى انتشر في عصره التعليم العربي في بلاد هوسا.

وهكذا كان التعليم حتى جاء القرن الماضي، القرن التاسع عشر الميلادي حيث اتخذ التعليم العربى لونًا آخر جديدًا، فانسلخ في بعض الأماكن من اللباس القديم.

وأول من غيَّر الأسلوب القديم وجمع الأولاد على المقاعد والسبورة للتعليم في نيجيريا وغانَهْ وسَيْرَالِيُونْ سنة ١٨٩٠م هو الشريف الشيخ عبد الكريم مرادي الطرابلسي الرحالة الذي

۞ راجع الفصل الأول تحت: قبائل هوسا والإسلام.

طاف بأقطار أوروبا، وآسيا، كما طاف بكثير من بلاد أفريقيا إلى أن وفته المنية بمدينة كَنَوْ في نيجيريا ١٩٢٦م. ثم اقتفى أثره الأستاذ محمد مصطفى الشامي نزيل لاغوس ١٩٠٤م، أسس بها مدرسة عربية وألف كتابه المسمى: مفتاح اللغة العربية للتعليم بأفريقيا الغربية، وقد لعب الشيخان دورًا فعّالاً في تأسيس الجمعيات الإسلامية والمدارس العربية في نيجيريا، خصوصًا في لاغوس.

وأول من أجاز استعمال الكتب المصورة من علماء نيجيريا على شكل التعليم الحديث هو الشيخ محمد اللبيب الإلورني المتوفى ١٩٢٢م، وقد نجح في تخريج النخبة الممتازة بهذا الأسلوب، ولم يأخذ على الجلوس على المقاعد والكتابة على السبورة إلا تلاميذه من بعده، وعلى رأسهم الشيخ محمد كمال الدين الأدبي۞. وهكذا بدأت تتطور المدارس العربية الحديثة في نيجيريا شيئًا فشيئًا حتى بلغت عروقها مؤخرًا المدن والأرياف في نيجيريا في شمالها، وجنوبها، وشرقا، وغربًا.

لم يفكر مسلمو نيجيريا في إنشاء المدارس الحديثة التي تكون على شكل المدرسة العربية الإسلامية المحضة، أو التي تمزج فيها العربية مع الإنكليزية إلا بشعورهم لدغدغة الحركة

۞ آدم عبد الله الألوري: نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي، الطبعة الثالثة، مطبعة دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. {١٤٠١هـ /١٩٨١م} ص ص ٥٧/٥٨.

التبشيرية لهم في آباطهم وأقدامهم، وقد جاء الاحتلال الإنكليزي مدلّسًا مع التبشير النصراني، حيث جاءوا وفتحوا المدارس يُدخِلون فيها أبناء المسلمين للتعمق في الإنكليزية، ليمهد لهم ذلك الحصولَ على الوظائف، والمناصب العالية؛ فاغتار عدد من أبناء المسلمين بهذه الحيلة، فتكالبوا على الاندماج في ركب المسيحية، خصوصًا من كان آباؤهم فقراء فلاحين في الأرياف والقرى في الجنوب. وأما في الشمال، فقد قعد العلماء والأمراء للتبشير في كل مرصد، وذروا الغبار في عيون التبشير.

ذهبت العاطفة التبشيرية ببعض أبناء المسلمين إثر التعليم في الجنوب، فتَنَبَّه المسلمون لمكيدة التبشير، فجعلوا ينفخون أنوفهم غيظًا ورفضًا من أن يكون أبناؤهم فريسة التبشير من أجل التعليم، فأسرعوا يأخذون من المدارس أبناءهم. وفي هذه الآونة نزل مستشرق إنكليزي إلى نيجيريا ١٨٩٣م، اسمه الدكتور"ويلمت بليدن"، كان صديقًا لسلطان تركيا، وكان يجيد العربية، والتركية، والإنكليزية؛ وكانت له مهارة في الإدارة. وقد سبق أن درس نوع المشكلة التي كان المسلمون فيها في نيجيريا مع التبشير في سيراليون، فعمد في رفع هذه المشكلة، فاتصل بالملكة "فِكْتُوْرِيَا" ملكة إنكلترا في ذلك الوقت، فطلب منها فتح مدرسة خاصة لأبناء المسلمين، فوافق الشّنّ الطبقة. ففتحت المدرسة بإشارته في لاغوس ١٨٩٧م، فتولى نظارتها الشيخ إدريس أنِمَاشَاهُنْ المثقف المسلم، كما فتحت مثلها في

كَنَوْ في الشمال. وكانت المدرسة تسمى المدرسة الإسلامية الحكومية، فبدأ أبناء المسلمين يتمتعون بتعليم الثقافة العربية مع الغربية في المدارس الحكومة بحرية كاملة.

هذا العمل حقًا لم يكن عن قلب صادق، ولا من نية خالصة من جهة المسؤولين لفتح هذه المدارس. فقد كرهت الحكومة المسيحية أن تكون لها مدرسة إسلامية تعادي عقيدتهم، فاضطروا على إسقاط كلمة "الإسلامية" من اسم المدرسة، لتبقى مدرسة حكومية محضة. كما فعلوا في تبديل ناظري ومدرسي هذه المدارس إلى غير المسلمين، فاستيقظ المسلمون، فعزموا على إنشاء الجمعيات الإسلامية في الجنوب، لتتحمل مؤونة تعليم أبناء المسلمين على غرار ما للجمعيات التبشيرية. فأسسوا هذه الجمعيات ۞، وكان لها ما كان لها من النجاح في منح أبناء المسلمين في الجنوب الهدى في التعليم وردهم عن الردى.

- **المدارس العربية في بلاد هوسا**

كانت حركة التعليم في الشمال على غرارها الأصلي حتى هبطت عليها الثقافة الغربية، فاقتضت سنة المستعمرين بإنشاء المدارس الحكومية الحديثة التي تلقن الشعوب اللغة الإنكليزية

۞ آدم عبد الله الألوري: الإسلام في نيجيريا ص١٥٠، والصراع بين العربية والإنكليزية في نيجيريا له أيضًا ص١٠.

لتلغي ما فيهم من العربية في المزابل حتى تنطوي في سجل النسيان.

حاولت الحكومة إيجاد من يقومون بالوظائف الحكومية في الشمال كما في الجنوب، ففتحت في هذه المنطقة المدارس الحكومية قام بإدارتها وتنظيمها "هنس بيشا" الذي قد أرسل إلى بعض بلاد العرب للاقتباس بطرق نجاح المستعمرين فيها في تنظيم التعليم. وقام بهذه الرحلة ١٩٠٩م، فسافر إلى مصر والسودان، ثم مر بغَانَهْ ولاغوس عند عودته، فجاء إلى الشمال مع المناهج الملتفة بالتعليم العربي والدراسات الإسلامية مما قد اقتبسه من مصر والسودان. فقررت الحكومة إدخال الآراء التي جاء بها بيشا في المنهج. ففتحت أولى المدرسة لتدريب المدرسين في كَنَوْ بالشمال ١٩٠٩م. ثم فتحت فصلاً آخر بها للأولاد. فبدأ التعليم يعطي ثماره حتى ظهرت ملامحه ١٩١١م، ففتحت مثل هذه المدرسة في سَوْكَوْتَوْ وكَتْشنَا ۞. فبدأت تخرج النخبة المتوسطة في الإنكليزية، النخبة التي ستنتظم في سلك الوظائف الحكومية، وتخيِّم على أولئك العلماء الذين كانت لهم الذمامة في الوظائف والقضاء قبلهم لدى الحكومة المحلية.

زلّت أقدام العلماء الذين كانوا لا يتقاضون راتبًا دسيمًا مثل ما يتقاضاه الذين كانوا يدرِّسون المواد الغربية في المدارس، ولا

۞ حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، للدكتور شيخو غلادنث، المرجع السابق ص ص ٩٤/٩٥.

يجدون ملجًا آخر للوظيفة بعد التدريس إلا في المحاكم الشرعية المحلية. فقد شاهد متعلمو اللغة العربية الأفلام التي كان يعرضها عليهم الإنكليز، وعرفوا أن ليس لهم هناك مرجع أو جاه يذكر في المستقبل ما داموا أنهم في معرض هذه الأفلام. ومن هنا انتبه العلماء، فانشأوا سنة ١٩٣٠م مدرسة الشريعة على نظام المدارس الحديثة لتخريج القضاة، والحكام، والكتبة في مدينة كَنُوْ وسَوْكَوْتَوْ. فبدأوا يتعلمون فيها اللغة العربية والشريعة الإسلامية على المذهب المالكي بواسطة العلماء العرب والمواطنين. فجاءت هذه المدرسة كاللبنة الأولى للمدارس العربية الإسلامية الحديثة في الشمال ۞.

وفي سنة ١٩٣٤م أنشئت مدرسة الشريعة الأخرى في مدينة كَنُوْ، وهي أرقى درجة من الأولى. وقد أنشئت بفضل الأمير الحاج عبد الله بَايَرَوْ، أمير كَنُوْ في ذلك الوقت الذي عاد من حجّه في العام المذكور، وكان قد لاحظ أثناء مكثه ومروره ببلاد العرب الثقافة الجديدة في التعليم العربي والدراسات الإسلامية، فاغتنم من تلك الملامح لإنشاء المدرسة لتخريج القضاة، والعلماء. فكانت المدرسة تؤدي رسائلها، وصارت قبلة العلم في نيجيريا وما حولها.

۞ المرجع السابق ص ١٠٠.

كانت هذه المدرسة تعرف بمدرسة الشريعة منذ تأسيسها، وفي سنة ١٩٤٧م اتخذت المدرسة اسمًا آخر، فصارت تسمى مدرسة العلوم العربية ۞.

ومن بعد هذه المدرسة انتشرت المدارس العربية الحديثة في مدينة كَنْوْ، وسَوْكَوْتَوْ، وكَتْشِنَا، ومَيْدُغُوري، وزَارِيَا، وكَادُونَا، وبَوْشِي في الولايات الشمالية، خصوصًا بعد الاستقلال.

- أنواع المدارس العربية الإسلامية في بلاد هوسا

المدارس العربية الإسلامية في بلاد هوسا نوعان: الحكومية والفردية، في حين لا تكون المدارس العربية الإسلامية في بلاد يوربا وإيبو إلاّ فردية. وتستعيذ الحكومة الجنوبية من أن تكون لها يد فيها، إلا إذا كان مديروها ممن يرضون أن تمسح آثار اللغة العربية من هذه المدارس، وتصير أخيرًا مدرسة حكومية خالصة.

أما المدارس العربية الإسلامية الحكومية في بلاد هوسا، فأكثرها تنشأ في أول الوهلة بمجهود فردي وجيه فاخر، كأن يفتحها أمير أو وزير. وبما أن كان أمراء ووزراء بلاد هوسا مسلمين، وكان بأيديهم الأمر والنهي في أرضهم، صارت أمثال هذه المدارس حتمًا المدارس الحكومية المحلية، تنفق عليها من

۞ المرجع نفسه والصفحة نفسها، ثم انظر إلى تاريخ التربية في نيجيريا، المرجع السابق ص ٦٥.

خراج وخزائن البلاد. ثم تتدرج المدرسة من هذه المرتبة، فتصير أخيرًا عبئًا على كواهل الحكومة الولائية، كما تدرجت إلى هذه المرتبة كل من مدرسة الدروس الإسلامية العالية بشَاهُوشِي المؤسسة سنة ١٩٣٠م للشريعة، ومدرسة العلوم العربية المؤسسة سنة ١٩٣٤م على يد أمير كَنْوْ عبد الله بَايَرَوْ للشريعة أيضًا ونحوهما.

وأما النوع الثاني من هذه المدارس، فهو المدارس العربية الإسلامية الفردية ينشأها مؤخّرًا الْغُيُرُ من العلماء والأثرياء بدينهم، وما إن تمكث كثيرًا حتى تبدأ الحكومة ترسل إليها المدرّسين، ثم تتكفل أخيرًا بمؤوناتها كلّها، ولا يبقى لمؤسسي هذه المدارس إلا فضل الإنشاء والتأسيس. فلربما كانوا هم وأولادهم مديروها بدون إعصار شيء من عرق أَجْبِنَتِهم في كل ما يتعلق بالإنفاق عليها لدفع عجله تلك المدارس إلى الأمام.

وأمثال هذه المدارس الثانوية في مدينة كَنْوْ، كلية تراث الإسلام، لفضيلة الشيخ محمد الناصر كَبَرَهْ، ومدرسة كَوْفَرْ رُووَا الإسلامية الثانوية للشيخ الحاج عبد الله بَرَوْ طَنْ بَتَ. ونظيرتهما في مَيْدُوغُري كلية الكانمي للدراسات الإسلامية، لزَبَدِين وعمر عليّ. وكان زبدين سوري الأصل، وكانا من أثرياء مَيْدُوغُرى. ومنها أيضًا كلية مصطفى عمر الكانمي العربية، وغير هذه المذكورة كثيرة في بلاد هوسا سواء كانت

ابتدائية أو ثانوية، فللحكومة أن تغدق عليها المال مثل ما تفعل بالمدارس الإنكليزية.

وأما المدارس الإسلامية الفردية الخالصة التي ليست للحكومة يد فيها، فهى الكتاتيب، فللمؤسس أن يتحمل أعباءها على كاهله أو يحملها على كواهل بعض الأغنياء الصالحين.

هذا، وقد ساعدت المدارس العربية الإسلامية الحديثة على تلقين الشعوب اللغة العربية، فنرى في بلاد هوسا من يتكلمون باللغة الإنكليزية حتى وقد أنشيء مؤخّرًا محو الأمي لتعليم الكبار، وكان أول من نوعه لجماعة عباد الرحمن في سَابَوْنْ غَيْري في كَنَوْ ١٩٧٤م تحت رعاية الحكيم الحاج سليمان بللو يرضى رئيس الجماعة إلى مدة عشرة أعوام. ثم جاء مثلها للمؤسسة الإسلامية في مدينة كَنَوْ أيضًا سنة ١٩٨٨م بفضل المرحوم الدكتور الشيخ القاضي الشرعي حسن غُوَرَوْزَوْ، وتسمّت المدرسة بمعهد الدراسات الإسلامية والعربية التابع للمؤسسة الإسلامية، كما يرجع فضل إنشاء ضرب المدرستين للنساء في مدينة كَنَوْ أيضًا إلى الدكتور أمين الدين أبي بكر، وكانت الدراسات في هذه المدارس كلها بعد العصر والعشاء.

- المدارس العربية في بلاد يوربا

لا تزال اللغة العربية تلتقط في بلاد يوربا من دهاليز العلماء قبل مجيء الإفرنج، فلما نزلوا بلاد يوربا بعَتَادهم وعِتَادهم، حاولوا نزعها من الأفهام، وسعوا في امتصاصها من الأقلام، فجعلوا يحملون الحطب في سبيل القضاء على الإسلام واللغة العربية، ودفع رجال دين الإسلام والعلماء إلى عرائن الأُسد، ليقضوا على الإسلام وأنصاره قضاء مبرمًا.

احتسابا بالواقع، وقد تنمّر مسلمو بلاد يوربا هم الآخرون على هؤلاء المستعمرين، وقابلوا سُمومهم بالترياق، مما قد لقّنهم به المتحرّرون المسلمون من أبناء يوربا من سيراليون الذين نزلوا لاغوس ١٨٤٠م، مما يبطلون به السحر الأروبي، إذ كانوا قد عاشوا معهم، وعاملوهم، وعلموا حيلة التفليت من ورطتهم، وقد سبق بيان ذلك كله في الفصل الأول.

لم يزل المسلمون في هَوى وهُوى هذه المشكلة حتى نزل بلاغوس الأستاذ الشريف عبد الكريم مرادي السالف الذكر ١٨٩٠م، فجمع مسلمي لاغوس على التعليم العربي بأسلوب حديث، ثم جاء بعده الأستاذ محمد مصطفى الشامي سنة ١٩٠٤م، فنسج هو على منواله، ودرسّ هو الآخر اللغة العربية بالنهج الحديث في بلاد يوربا، ولا سيما بواسطة كتابه مفتاح اللغة العربية المذكور.

وأما الأستاذ الشريف عبد الكريم مرادي، فقد طاف بلاد يوربا بالتدريس، حيث تلقى منه عدد كبير من أهل إجَيْبُو أوْدَيْ قبل بناء أولى مدرسة إسلامية بها سنة ١٩٣٠م۞.

كان أبناء أبيكوتا أول من انطلقت ألسنتهم بالتخاطب باللغة العربية من أهل بلاد يوربا على الإطلاق ۞۞، قد سبقوا أبناء لاغوس، وإبادن، وإجَيْبُو، وإلوْرِنْ في هذا الميدان. ولقد سعدوا بإيفاد عدد من العلماء من العرب إلى بلادهم من أيام الشريف عبد الكريم مرادي الذي أرسل تلميذه أبا بكر سَافِيج وعمر سافيج لفتح مدرسة عربية على النهج الحديث عام ١٩١٧م. وكان قد تألف في صف المدرسة عدد، منهم المعلم جمعة بمْبَوْلاَ، ومحمد شئت، وسراقة أيَوْدَيْج، وعبد الحميد بَوْدَيْ، وعبد الكريم مَكَوْلاَ، وحسين أدَيْيِنْكَا بربوة سَاجِي... ثم تعاقب على التعليم في هذه المدرسة الشيخ إبراهيم دِنْدِي من أسرة مسلم دِنْدِي، ثم الأستاذ هارون الرشيد الأزهري الذي جاء من سيراليون، ثم الشريف عبد اللطيف الزبادي السوري" ۞۞۞.

هذا، ومع تطور وازدهار تعليم اللغة العربية في أبَيْكُوتَا في بلاد يَوْرُبَا في ذلك الوقت، كانت لجمعة بمْبَوْلاَ حركات أخرى لرفع

۞ آدم عبد الله الألوري: نسيم الصبا، الطبعة الثانية، ص ١٩٣.

۞۞ المرجع السابق نفسه ص ١٩٥.

۞۞۞ المرجع السابق ص ١٩٥. فربما هذا الشيخ هو من أجداد زبادن الذي شارك عمر عليّ في تأسيس كلية الكانمي للدراسات الإسلامية في ميدوغري، كما كان يرجع بأصله إلى سوريا.

مستوى التعليم والإسلام في بلاد يوربا. فقد أنشأ هو الآخر مدرسة عربية عصرية أخرى في ١٩١٧م، وتعاقب عليها الأساتذة العرب والعجم، كما أنشأ جمعية العروة الوثقى التي عاشت إلى سنة ١٩٣٥م، وكان هو أيضًا أول من أنشأ المطبعة العربية في نيجيريا في ١٩٣٦م، وأخرج عدة كتب تبلغ خمسين كتابًا إلى أن تآمرت عليها الصليبية، وأحرقتها تحت عواصف سياسية ١٩٦٥م، ولم يستطع بمْبَوْلاَ أن يستعيد نشاط المطبعة كالأولى حتى توفي ١٩٧٣م، رحمه الله تعالى.

والأستاذ محمد جمعة بمْبَوْلاَ من مثقفي أبَيْكُوتَا، تثقف بالعربية والإنكليزية، وكان ينزل بداره العلماء والفقهاء، وتتحمل نفقاتهم من جيبه الخاص ۞.

وأما أولى المدارس العربية النظامية الحديثة في مدينة إبادن، فهي المدرسة الخراشية الثانوية التي أسسها المرحوم الشيخ خراشي محمد الثاني أوْدَوْكُنْ إبادن سنة ١٩٤٥م وهو العالم الذي أشار إليه الشيخ آدم الألوري مع من نشروا التعليم العربي في البلد في قوله:

"أما الذين لعبوا دورًا هامًا في إصلاح منهج التعليم في إبادن فأوّلهم المرحوم معلم خراشي، ثم المرحوم الحاج عيسى مَغاجِي، وعلى أيديهما تثقف كثير من أبناء البلد، وأخيرًا نجح

۞ المرجع السابق، ص ١٩٥.

في هذا الميدان الشاعر المنطيق مرتضى عبد السلام، وقد نجب من معهده عشرات" ۞.

وقد توفي الشيخ خراشي بعد عَوْدَتِهِ من الحجّ مباشرة سنة ١٩٦٥م وقد ولد رحمه الله في ١٩١٢م.

وأولى مدرسة نظامية حديثة في لاغوس مركز التعليم العربي الإسلامي الذي أسسه المرحوم الشيخ آدم عبد الله الألوري في مدينة أبَيْكُوتَا ١٩٥٢م وانتقل إلى أغَيْغيْ بلاغوس ١٩٥٥م، فقد اشتهر هذا المركز على أكثر المدارس العربية في بلاد يوربا، لتفوُّق مؤسسه على جميع علماء بلاد يوربا في ميدان البحث والتأليف، ولا ينكر فضل مؤسس ذلك المركز في هذا الميدان إلا الظالم. بل كان المؤسس أسوة حسنة ينبغي لطلاب اللغة العربية والدراسات الإسلامية في نيجيريا أن يقتدوا به، ويتأثروا به، كما تأثر هو بأبناء فودي. وقد استفاد به العرب والعجم حتى كان حجة ليوربا خاصة، وللشعب النيجيري المسلم عامة في جميع العالم العربي الإسلامي. وقد كان لمركز الشيخ آدم عبد الله الألوري فروع في نيجيريا وفي الجمهورية البينوية (الداهومي). يعمل كل منها بإشارة المؤسس للأصل، توفي رحمهُ الله أثناء كتابة هذا البحث، يوم الأحد ١٤١٢/١١/٢هـ الموافق ١٩٩٢/٥/٣م عن خمسة وسبعين عامًا، وهو من مواليد ١٩١٧م.

۞ المرجع السابق نفسه، ص ص ١٤٧/١٤٨.

ثم يلي هذا المركز في التأسيس المعهد العربي النيجيري في مدينة إبادن لمؤسسه صاحب الفضيلة الشيخ مرتضى عبد السلام السالف الذكر مع الشيخ خراشي في كلام الشيخ آدم الألوري، وقد أسس المعهد سنة ١٩٥٨م، ويعرف الشيخ مرتضى بالعلم، والورع، والزهد، والتنسك؛ لا يخرج إلا لضرورة. فلربّما كان أكثر خروجه إلى بلاد العرب في دعواتهم إياه للزيارة للبلاد.

وقد استطاع هذا المعهد أن يلحق به قسم الدبلوم عقب الثانوية من الثمانينات، كما أخبرني الشيخ المؤسس لهذا المعهد قريبًا بأن المعهد، قد كان في حركة بناء كلية على المستوى الجامعي تحت إشراف جامعة المدينة المنورة في مدينة إبادن ۞، ولد الشيخ مرتضى ١٩٢١م، وتوفي رحمه الله في ٢٠٠٧م.

ثم يأتي بعد هذا المعهد، المعهد الديني الأزهري لجماعة أنصار الإسلام في نيجيريا، أسسه فضيلة الشيخ كمال الدين الأدبي في مدينة إلورن ١٩٦٤م، وهو الشيخ المعتبر بشيخ شيوخ بلاد يوربا في عصره، ذلك لغزيرة علمه، وتقدمه في السن، وكان له تلاميذ كبار لا يحصى العدّ قبل إنشائه هذا المعهد. كما أنه أسس جمعية إسلامية ١٩٤٥م تعرف بجماعة أنصار الإسلام. ولهذه الجمعية مدارس إنكليزية عدة في جميع بلاد يوربا، وما زال

۞ وقد وَقفْتُ على هذا الخبر إبَّان مقابلتي للشيخ ١٩٩٠م، وقد اشترى قطعة واسعة من الأرض في حارة أولودو لتحقيق هذه الأمنية.

الشيخ يخرج لإبلاغ الناس رسالة ربه مع تقدم عمره إلى أن توفي، ولد ١٩٠٥م وتوفي ٢٠٠٥م رحمه الله.

والمدارس العربية الإسلامية في بلاد يوربا كثيرة، ويضيق بنا المقام لذكر جميعها أو أكثرها هنا، وقد ذكر منها الدكتور عليّ أبو بكر في ثقافته، ويبلغ بعض ما ذكر منها مما وجد في قرار ١٩٦٥م للأستاذ دُهَيْني السوداني المدرس في مدينة إبادن سبع وأربعين مدرسة[۞]،حتى قال هو نفسه بأنه معجب بها وبالأسماء التي تحملها هذه المدارس. كما ذكر الأخ إبراهيم جامع أوْتُويُوْ حوالي ثمان وعشرين مدرسة في كتابه: "دروس أساسية في جغرافية نيجيريا" مما كان مستواها بين الإعدادي، والثانوي، والدبلوم. ومن أشهر هذه المدارس "معهد شمس سعود الإسلام في إبادن، ومركز التعليم العربي في إوَوْ، ومدرسة الدعوة الإسلامية في أبَيْكُوتَا، ومدرسة النهضة العربية العالية بإبادن، ومدرسة دار الدعوة والإرشاد في لاغوس، ومدينة الدعوة الإسلامية بمدينة إبادن".

ولقد كان الهدف الرئيسي في إنشاء المدارس العربية في بلاد يوربا نشر الدعوة الإسلامية واللغة العربية في البلاد، كما كانت الحال في بلاد هوسا.

۞ عليّ أبو بكر: الثقافة العربية في نيجيريا، ملحق رقم ٧، ص ٥٣١ ٥٣٣.

هذا، وقد تولّدت من مركز الشيخ آدم مدرسة الروضة الإسلامية للأستاذ يونس السنوسي في مدينة إكِرُنْ، وكذلك مدرسة دار الدعوة والإرشاد لإخ يونس المذكور،الأستاذ مصطفى السنوسي الإكِرُنِيّ الملقب بزغلول في لاغوس، ولزغلول باع طويل في اللغة العربية، وله مؤلفات كثيرة منها: " سيعود العرب إلى فلسطين، والمرأة بين الحجاب والسفور". وقد كان يؤلف من الستينات، وهو الذي قال الشيخ آدم عنه: " لو قيل يا آدم ماذا عملت في الدنيا، لكفاني أن أقول علَّمت مصطفى زغلول ". وكان آذان زغلول للصلاة هو المستعمل أيام الجمعة في إذاعات بلاد يوربا من الستينات حتى وقت تأليف هذا الكتاب.

وأما أشهر المدارس المنبثقة من المعهد العربي النيجيري لفضيلة الشيخ مرتضى عبد السلام، فمنها المركز المهني العربي الإسلامي للأستاذ عبد الرؤوف محمد المصطفى، وكان مركز الشيخ عبد الرؤوف أول من نوعه في غرب إفريقيا، حيث تُتعلم الصناعات المختلفة على اختيار الطالب، وذلك إلى جانب من يريد التعمق في الدراسات الإسلامية واللغة العربية، وكانت اللغات المستعملة في المركز، العربية، والإنكليزية، والفرنسية، واليورباوية، والإيبووية، والهوساوية. وقد أسس المركز في مدينة إبادن ١٩٨٧م، وأخرج النخبة الممتازة الأولى ١٩٩٢م في المستوى الدبلومي.

وتلي هذا المركز من انتاجات المعهد العربي النيجيري كلية الشريعة الإسلامية، للأستاذ عبد الرشيد هدية الله الملقب بالشيخين، كان من أوائل النيجيريين الذين التحقوا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٩٦٣م، وتخرج في كليتين معًا في الجامعة، كلية الدعوة والشريعة، فصار من يلقب بالشيخين. وقد أسس الكلية في مدينة إبادن في ١٩٩٣م، وانتقلت في عام ١٩٩٥م إلى مدينة إوَوْ مسقط رأس مؤسسها.

ويلحق بالمدارس المتولدة من المعهد العربي النيجيري، معهد زكريا لتحفيظ القرآن والتعليم العربي، لمؤلف هذا الكتاب؛ وقد أسسه عام ١٩٩٣م في مدينة إبادن بغية تدريب المعلمين على تحفيظ القرآن الكريم وتجويده؛ وكان من المعهد انتشر المدرسون المحفظون والمجودون في بلاد يوربا من ١٩٩٥م.

وأشهر المدارس المتولدة من المعهد الديني الأزهري لفضيلة الشيخ كمال الدين الأدبي المدرسة الأدبية الكمالية، لمؤسسه الشيخ الأستاذ الحاج عبد الرحيم أمين الله الأدبي، وهو خطيب وواعظ، وكانت المدرسة في مدينة إلورن.

هذا، وقد أنجبت هذه المدارس كلها دكاتير، وأطباء، ورجال الشرطة، وجنودًا، ومعلمين أكفاء، تعترف بهم حكومة نيجيريا، كما تحترمهم بلاد العرب على حدّ سواءٍ.

- المدارس العربية في بلاد إيبو

إن الكلام على المدارس العربية في بلاد إيبو لكلام حديث العهد، لكلام ينبغي أن يشكر مسلمو نيجيريا الله عليه، إذ ذاك ينتمي إلى تحقيق قوله تعالى {... وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}۞.

فيما مرّ بنا من ثنايا البحث بأن الإسلام بدأ بالظهور في بلاد إيبو من الثلاثينات في القرن العشرين على يد الحاج سفيان أَعْوَاسِمْ ويوسف أوَّى، ثم ارتقى في الخمسينات على يد الزعيم الإسلامي الأكبر في بلاد إيبو، الشيخ إبراهيم نياس إنْوَاغْيْ، وبلغ أوج مجده فيها عندما خرج هو مع بعض قوافله إلى شمال وغرب نيجيريا لإعلان بإسلامهم حتى سافر هو مع صاحبه جَاسْ عثمان إلى السعودية، وإلى مصر لطلب المعونة ١٩٦٢م. ومن ذلك الوقت بدأ الإسلام يتوطد في بلاد إيبو كما يرام.

وأما عن المدارس العربية الإسلامية في هذه البلاد، فكان أولها المدرسة القرآنية الابتدائية التي أنشأها البروفيسور عليّ بَابَاتُنْدَيْ فَافُنْوَ، والبروفيسور عبد الرحمن دَوْإ في إنْسُوكَا عام ١٩٦٥م، فكان يحضرها مسلمو إيبو. ساعدت على تقدمها المملكة العربية السعودية بإرسال مدرِّسَيْنِ عَرَبيينِ للتدريس في المدرسة، أولهما الأستاذ محمد علّي نور السّوداني، والثاني

۞ سورة الصف ، الآية ٨.

الأستاذ مولى حسن الجزائري المغربي. وشاركهما في المدرسة إبراهيم جُوكُو إدَمْ من أمَوْزُو إنْدَاكِي، فصارت المدرسة تؤدي واجباتها إلى أن شنّت الحرب الأهلية التي أهلكت الحرث والنسل. ثم اقتفت هذه المدرسة مدرسة الشيخ إبراهيم إنْوَاغْيْ التي أسسها بعد عودته من البلاد العربية في أنْوْفِيَا، ولكن لم يستقرّ بها المقام حتى بدّدت الحرب شملها، فأعيد تشييدها، فصارت مركزًا فيه فصول، ومسجد جامع، ومسكن المدرسين، ومكتبة، ومستشفى. فقد كانت المدرسة الآن تحت رعاية دار الإفتاء بمكة المكرمة ۞، وكان مديره الحالي الشيخ أمانة الله الهندي الذي كان ينفق النفس والنفيس من دمه على إعلاء كلمة الله في تلك المدرسة خاصة وفي بلاء إيبو عامة ۞۞. وكان هذا الشيخ منذ أن كان في المعهد العربي النيجيري في

۞ هذا ما كان في أطروحة السيد محمد سعيد ، وأخبر الأخ الدكتور عبد الفتاح أميتوما بأن المدرسة لم تكن تحت رعاية دار الإفتاء ، بل رابطة العالم الإسلامي .
وأما الدكتور عبد الفتاح أميتوما فهو إيبووي، تعلم العربية والدراسات الإسلامية في مدرسة إسلامية أسسها المحامي الحاج بشير أغسطس بلاغوس. وقد أسلم والدهُ في مدينة لاغوس على يد المؤسس المحامي، ثم واصل عبد الفتاح دراسته في جامعة الملك عبد العزيز بالرياض بين سنة ١٩٧٩م - ١٩٨٣م، ثم انتقل إلى الجامعة الدولية في مزوري بالولايات المتحدة، وهناك أكمل دراساته العليا ونال دكتوراه ١٩٩٠م في الفيلسوف والدين الإسلامي. وقد أخبرني بذلك عند مقابلتي إياه في مدينة إبادن في ١٩٩٥م .

۞۞ كان الشيخ أمانة الله مطبوعاً بالدعوة ، وكان أول نزوله في نيجيريا في المعهد العربي النيجيري ١٩٦٩م ، وكان ممن أخذتُ أنا المؤلف منه في المعهد المذكور ، ثم غادر الشيخ المعهد بعد أن أدى فيه واجبه إلى مدرسة حكومية ثانوية في إجَيْبُو أوْدَيْ ١٩٧٦م ومكث في المدرسة حتى سنة ١٩٨٣م ، ثم انتقل إلى بلاد إيبو ليتفرّغ للتعليم والدعوة والإرشاد بها ، فقد وَجَدَ المنطقة خصبة لدعوته ، موافقه لوظيفته ، ملائمة لإرادته ، وكان الشيخ أمانة الله مثالاً في الزهد والورع ، كان لا يملك فوق لباسين وحذاء واحد منذ أن عرفتُه مع أنه ليس بفقير معدم.

إبادن، كان يسافر إلى بلاد إيبو لإيراد الشعب الإيبووي المسلم إلى المعهد للتعلّم، وقد شاهدتُ أنا الكاتب شخصيًّا أيام أن كنت في هذا المعهد طالبًا أنه أورد حوالي خمسة عشر طالبًا من بلاد إيبو، وكوّن لهم مسكنًا خلف فصول المدرسة، مما كان أول من نوعه في تاريخ هذا المعهد، فكان إطعام هؤلاء الطلاب من السعودية. وبعد ثلاثة أعوام، قدّم النجباء منهم إلى جامعة المدينة المنورة لتكملة دروسهم.

وسنأتي إلى ذكر بعض أسماء هؤلاء السعداء من أبناء إيبو، ممن كانوا من شخصيات اللغة العربية في بلادهم فيما بعد.

وفي مدينة أوْرلُو نجد مركزًا إسلاميًا آخر قد أنشيء بفضل رَجُلين، هما: محمد أوْكَاغْبَا، وتجاني أكُوبُو. وقد بنيا مسجدًا في المركز، وكان الأول محمد أوْكَاغْبَا هو الإمام في أوْرلُو، والثاني تجاني تاجرًا في أوْنِتْشَا، وقد اعتنق الإسلام في كَلاَبَارْ قبل الشيخ إبراهيم إنْوَاغْيْ، وكان المركز مبنيًا بفضل الرجلين كما ذكرنا، ثم أتَتْه المساعدة المالية من قبل سفير الأردن إلى نيجيريا، السيد كامل الشريف. وكان في المركز مسجد كبير، ومكتبة، وقاعة الاجتماع، ومضيف. وكان المركز مع بقية المدارس في تلك المنطقة تلعب دورها في تثقيف أبناء إيبو في ميدان التعليم العربي الإسلامي ۞.

۞ محمد سعيد: الإسلام في بلاد أيبو، المرجع السابق ص ٢٩.

وأما أبناء إيبو الفائزين بنصيب وافر في ميدان تعلّم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وكانوا فرسان هذا الميدان، فأكثرهم بعد تخرّجهم من المدارس العربية الإسلامية من بلادهم والتحاقهم ببعض المدارس الثانوية العربية في بلاد يوربا، كانوا يواصلون سيرهم قدمًا لبلوغ الغاية المتوقعة في هذا الميدان المبارك.

وأما أبناء إيبو الذين قد أكملوا دراساتهم في بلاد العرب، وكانوا حتى اليوم في حقل الدعوة والإرشاد في بلادهم، فمنهم الحاج داود إنْوَاغْيْ بن عم الشيخ إبراهيم إنْوَاغْيْ، تخرج هو في ليبيا، وكان الآن مع الشيخ أمانة الله في مركز الشيخ إنْوَاغْيْ في أنْوْفِيَا، وكذلك محمد الأول سليمان.

ومن أولئك أيضًا عبد الرشيد أنَاغَا، وأمين أوْدَيْإِرَا، والشيخ صالح أوْكَيْنِوَا، تخرجوا هم الآخرون في ليبيا، وواصل الثالث دراساته العليا للماجستير في المغرب.

ومنهم أيضًا هارون أغْبَوْنِي هَاجَا، وآدم إدَوْكَوْ، وسعيد، وصالح أبُوغُو، تخرّج كلهم في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ويلحق بهم عيسى إسُّو الذي انضم إلى الأزهر الشريف، ثم انتقل إلى جامعة الملك عبد العزيز، ولم يقدر الله أن يكمل بها دراسته حتى صادفته بها المنية ١٩٨١م ۞.

۞ سورة إبراهيم - آية ٤.

هكذا كان الإسلام يتقدم، واللغة العربية تزدهر في بلاد إيبو بفضل المسلمين الأوائل في البلاد أولاً، ثم بفضل أبناء إيبو المسلمين العلماء في اللغة والدين الذين قد خرجوا لطلب العلم وعادوا إلى بلادهم ليبلغوا رسالة الله إلى قومهم بلسانهم القومي، والقرآن يقول: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ، فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ العَزِيْزُ الحَكِيمُ} ۞.

۞ الإسلام في بلاد إيبو ص ٨٩ ، وفيه بعض إضافات مما عرفتُ باليقين.

- بين طلاب اللغة العربية في الشمال والجنوب

كانت السُّنة المتبعة في أية مدرسة إسلامية أسسها أيّ وجيه من وجهاء الشمال أن تنقلب بحركة ذاتية - نهائيًا - إلى مدرسة حكومية تستريح على كواهلها، فكانت للحكومة في الشمال يد بيضاء في إطعام شعوبها الدراسات الإسلامية الناضجة واللغة العربية، فكانت الشعوب في هذه الولايات ممن لا يعلمون صعوبة التعلُّم، لأن حكومتهم تتحمل جميع نفقات التعليم بواسطة المنح الدراسية. ولهذه النعمة كان التعليم العربي في الشمال أسهل، وطلاّبه فيه أكثر، حيث لا يضطر الشعب الهوساوي غالبًا للخروج للتعلم، لا إلى بلاد يوربا إلاّ شذوذًا، ولا إلى بلاد العرب إلا العشرة في المائة، لأن الشعب الهوساوي، كان يتمتع بالتعلم العربي في محيطه من أدنى المستوى إلى أقصاه الجامعي بدون تعب أو عناء.

وأما طلاب اللغة العربية والإسلامية في الجنوب، فلا يزالون يواجهون الصراع مع أعدائهم المسيحيين الذين كانوا يحملون الحطب في سبيل نجاحهم. والسبب في ذلك، هو أن أولئك الذين قد تقدموا في ميدان العلوم الثقافية والإنكليزية في الجنوب كان أكثرهم مسيحيين، وكانوا لا يزرعون إلا عند أنفسهم، ولا يتركون الفرص لأندادهم. وكانوا يقطعون الشوكة في طرق تقدم المسلمين، فإذا رأوا من يتعلم العربية قالوا قولتهم المشهورة:

" إنما يتّبع العلماءَ الكسالى ". ظانّين أن كل من يتبع العلماء للتعلُّم إنما كان يضيّع حياته في ما لا جدوى فيه. وكان المسلمون أيضًا يكرهون أن يرسلوا أولادهم إلى المدارس الحكومية خوفًا من انسلاخهم دينهم.

فكم اصطاد التبشير من أبناء المسلمين في بلاد يوربا ممن كان آباؤهم في شدة الحرص في التعلُّم الإنكليزي، فقد اصطادوهم بمكائد عدة، منها تغيير أسماء هؤلاء الأولاد العربية الإسلامية عند التسجيل في المدارس إلى أسماء محلية، كالألقاب وغيرها مما فيها الرواسب الجاهلية من أسماء أجدادهم غير المسلمين، فإذا رضى الوالد بذلك، كالوا به خفّة إيمانه الإسلامي، وقبلوا منه ولده في المدرسة، وجرّدوه من عقيدته الإسلامية، واختاروا له اسمًا إنكليزيًا مسيحيًا بدل اسمه العربي الإسلامي. وإذا أنكر الوالد تغيير اسم ولده عليهم، رفضوا قبوله. إذ عرفوا بذلك بأنه قوي الإيمان، وتركوا له ابنه مع إيمانه... ولقد اكتشف على حركة التبشير جماعة مَكَوْنْدَوْرَوْ {Makondoro} في بلاد يوربا، وكانوا يقولون ردًّا على الثقافة الغربية التي هي مغناطيس المسيحية شعرهم: " نحن لن نرسل أولادنا إلى بلاد القرود أبدًا، وأما إذا كان إرسالهم إلى مكة، فبه ونعمة" ۞.

۞ جماعة مَكَوْنْدَوْرَوْ، هم المهتمون بإرسال اللِّحَى واستعمال العمائم الضخمة، وكانوا أكثر للثقافة الغربية أعداءً، وكان يُعَبِّر الشعبُ اليوربا ويُ عن الإفرنج بأوْيِنْبَوْ {Oyinbo} واختصارًا أيْبَوْ {Eebo}، وقد حوّل مَكَوْنْدَوْرَوْ اختصار هذا الاسم إلى أوْبَوْ {Obo} الذي يعني القرد في لغة يوربا كراهية لهم، وكان معنى بلاد القرود عندهم بلاد الإفرنج.

ولقد كان أمثال هذا الصراع هو الجاري بين المسلمين والمسيحيين في الجنوب في ميدان التعليم، مما دغدغ المسلمين، وفطنهم لإنشاء المدارس الإسلامية لأولادهم، وكانت هذه المدارس على نوعين:

- النوع الأول: مدرسة الجمعية التي اجتمع أعيان من المسلمين لفتحها، مثل المدرسة الأحمدية، ومدرسة أنصار الدين، ونوّار الدين، وأنصار الإسلام ونحوها. وهؤلاء قبل أن يجدوا رواتب المدرسين، ينظّمون ضرائب إجبارية شهرية أو أسبوعية للتمويل لأنفسهم. وإن حدث أن قلّ ما يجدونه من هذا الباب، فتحوا باب توسيع حفلاتهم من حفلة التسمية، والزواج، والوليمة، وعيد المولد النبوي الشريف، وليلة القدر مثلاً، ليحصلوا على ما يتمنون أن يكفيهم لدفع حجر العرقلة عن سبيل تعليم أولادهم.

وفي الغالب الأعمّ، لم يكن هذا الجهد والاجتهاد ما يكفيهم لسدّ فراغ مشاكل هذه المدارس، فيضطرون إلى طلب مبلغ يسير يدفعه الطالبُ لسد فوهات اللوازم المدرسة.

- والنوع الثاني: المدرسة الفردية، وكانت هذه غالبًا مدارس عربية إسلامية محضة، وهذه كثيرة جدًا، توجد في المدن والقرى. ومن أمثال هذه المدارس، والمعاهد، والمراكز المذكورة سابقًا، ولا سبيل لمؤسسي هذا النوع من المدارس إلا أن يضربوا المصاريف المدرسية المعينة لكل من يتتلمذ عندهم.

ومن هذه المصاريف تدفع رواتب المدرسين وتوسيع المدارس عند الحاجة، وشراء اللوازم المدرسية. ولا يكون ذلك في مدرسة دون أخرى، وإن كان بعضها تقبل أحيانًا شيئًا من المساعدة من السعودية وغيرها من الدول العربية، ومع ذلك فلا تُغني فتيلاً.

من أجل هذا، نرى أن من عرف شيئًا من اللغة العربية في الجنوب، إنما قد عرفه بالمال اللُّبَد الذي قد أهلكه في تحقيق هذه الأمنية. ولا يقول أحد أنه قد عرف اللغة العربية في الجنوب مجانًا، إلا إذا كان من أقرباء، أو من صلب مؤسس المدرسة التي تتلمذ فيها. وإذا تخرج أيضًا لا يجد قبولاً، ولا وظيفة حكومية، فضلاً عن أن يجد كلية يلتحق بها بعد الإعدادية أو الثانوية التي قد أكملها، فيكون مصير ذلك الطالب إذا كان طموعًا، أن يُكسر قواه في الحصول على المنحة الدراسية في بلاد العرب ليتوّج دراسته هناك. لذلك كان عدد من يخرجون إلى البلاد العربية من طلاب اللغة العربية والدراسات الإسلامية من الجنوب، كانوا يعادلون أربعين في المائة أو أقلّ. ولقد كان الغالب الأعمّ في طموح تسعين في المائة منهم أن يخرجوا إلى البلاد العربية للتكملة، إلا أن المنح غير متوفرة، فيشقّ بعض منهم طريقه إلى بلاد هوسا حيث يوجد قسم الدبلوم والكلية في الجامعة للمواصلة الدراسية هناك، وذلك استجابة للحديث

القائل: " اطلبوا العلم ولو بالصين ". ونظرًا إلى قول الشاعر القائل:

تغـرَّب عـن الأوطـان في طلـب العـلا
فـسافر ففـي الأسـفارِ خمـسُ فوائـد
تفـريج هَـمٍّ واكتـساب معيـشة
وعلـم وآداب وصـحبة ماجـد
وإن قيـل في الأسـفار ذلٌّ ومحنـة
وقطـع الفيـافي واكتـساب الـشدائد
فمـوت الفتـى خـيرٌ لـه مـن حياتـه
بـدار هـوان بـين واشٍ وحاسـد

هذا، ولقد نظر في هذه المشكلة قسم الدراسات الإسلامية واللغة العربية في جامعة إبادن منذ أواخر الستينات، فأسس بها قسم الدبلوم لتزويد الطلاب للحصول على شهادة تؤهلهم للالتحاق بالجامعة عندهم، وكانت مدة هذا التدريب سنة واحدة، يتعلم فيه الطالب الإنكليزية غالبًا، الأمر الذي ساعد المسلمين في الجنوب حاليًا للخروج على المسيحيين والمصارعة معهم في الميدان الثقافي.

أجل، وإذا نجح المسلمون اليوم في الجنوب في المصارعة والمناطحة مع المسيحيين للحصول على منصب عال، فإنه لم

يوصلهم إلى ذلك إلا ما قد أهلكوه من ألبد الأموال في بناء شخصياتهم أمام الكفار. ومن أجَلِّ الذين تخرجوا في الجامعات الخارجية والداخلية، وكان لهم باع في الإنكليزية مع ما لهم من العربية، وكان قد أصبح كثيرهم برافسة ودكاترة في الدراسات الإسلامية واللغة العربية، أصبح لزامًا أن يشاركوا المسيحيين في المناصب الدولية، إذ صاروا أصحاب الثقافتين العربية والإنكليزية، في حين كان المسيحيون ولا يزالون ذوي الثقافة الغربية وحدها.

طلاب اللغة العربية في الشمال، كانوا يتعلمون اللغة العربية والدراسات الإسلامية ذخرًا للفلاح الأخروي، من حيث أنهم كانوا يتعلمونهما للدين والعبادة، وكانوا يبيتون على هذه النية حتى تأتيهم عليها الحسنة الدنيوية من الوظائف والمناصب نافلةً. لكن طلاب اللغة العربية والدراسات الإسلامية في الجنوب كانوا يتعلمونهما لشيئين رئيسين معًا: الأول منهما، للفلاح الأخروي مثل إخوانهم هوسا، والثاني للسلاح الديني.

وأما للسلاح الديني فمفهوم من أجل أنهم كانوا يتعلمون عروق هذا الدين ولغته دفاعًا لهم من شرور أعدائهم المسيحيين الألداء، إذ أن بعضهم قد أجمعوا آراءهم، فأرسلوا طائفة منهم في القرن الماضي لتعلّم اللغة العربية، فترجموا بعد ذلك القرآن بفلسفتهم وهواهم إلى لغة يوربا، ليضلوا به عن سبيل الله. فقد

نجحوا بهذه المحاولة لصرف وجوه شطر قبلتهم حتى مطلع هذا القرن ١٩٠٨م، قبل أن يخزيهم الله بعلماء أكَيْوُكَيْوَيْ، فجعلوا مكيداتهم في نحورهم، كما سوف نرى بيان كل ذلك بالتفصيل في الفصل التالي تحت الصراع الديني.

- المنصّرون في نيجيريا

المنصّرون في نيجيريا لا يختلفون عن غيرهم في أي بلد آخر من حيث المناهج والأهداف، تراهم يعلنون خلاف ما في بطونهم في أول الأمر، فيتوارون وراء التعليم، وهم يزرعون في حقل التبشير الصليبي.

ومنذ أن وطأ التبشير أرض نيجيريا بدأ بانسلاخ الشعوب عن عقيدتهم ـ العقيدة الإسلامية والوثنية ـ فاتبع عدد من المسلمين المنافقين صفير التبشير، وهم ضعفاء الإيمان المغتارون بالمواد، وغاب أكثر الوثنيين في جوّ التبشير.

إن التاجر الذي يمتلك أجود البضائع، وأفخر المتاجر، لا يأخذه ضجر لصرف وجوه الناس إليه، إذ يؤمن بأن إليه المعاد. وأما الذي لا يمتلك إلا المجوَّف من البضائع، ولا يذخر من المتاجر إلا المصاص، فهو الذي يقوم ويجلس، ويصيح ويثرثر، ويقبض على الأيدي، ويبشّ في وجوه المارين لجذب منهم الزّبن.

والإسلام ليس بشبعان ولا بجوعان حتى يجذب علماؤه القلوب إليه بالهدايا والعطايا وهم فقراء، ولكنه مع ذلك يجد زبنه يومًا فيوم إذ كان خالصًا بذاته، محضًا بشريعته، غير مدلس بدنائس.

وأما المسيحية، فلا نرى من يعتنقها إلا مستجيبًا لشيئين:

- الأول: إما أن يعتنقها من أجل أنها دين سهل لا يطالبه حفظ أي شيء، مثل حفظ السور القصار للصلاة عند المسلمين، ولا يطالبه تكرير العبادة مثل المسلمين الذين كانوا يلتزمون يوميًا زيارة المسجد للصلاة مرات خمسًا، كما أنهم يتخلصون من اللصوق على الأرض حتى لا تتسخ لباسهم مثل لباس المسلمين، وأكثر من اختاروا هذا الوجه الوثنيون.

وأما الشيء الثاني: فهو اعتناقها عن طريق الإغراء بالمواد والزخارف، فقد نجح التبشير في ذلك بفتح المدارس، والمستشفيات، والكنائس، والمستوصفات، وكانت أولى المدارس التبشيرية المفتوحة في نيجيريا كانت في بَدَاغِري سنة ١٨٤٣م على يد السيد والسيدة "دِي غِرَافتْ De Graft" وقد وصف دِي غِرَافتْ في التاريخ ١٨٤٣\٧\١٤م ما يشكر به نفسه من سعيه من شكل دعوته للناس إلى المسيحية من أنه كان يجمع الناس في الصباح للتعليم، كما يجمعهم أيضًا في المساء لشرب القهوة. اسمعه يقول: " ما كان يخالفني أحد أصدقائي الذين كنتُ أدعوهم ليشاركوني في وظيفتي، وكانوا

يأتون في الوقت المناسب، وفي هيئة حسنة. وفي ضمن الذين كانوا يحضرون مَلِكَانِ، ومعهما عدد كبير من أتباعهما.... وكانت الكنيسة منظمة مرصعة يحضرها حوالي أربعون ولدًا من النيجيريين والسيراليونيين في زيٍّ أوروبي، وكل من الحاضرين والملوك يتظاهرون في أفخر لباس، وكان المشهد أيضًا رائعًا، ففتحتُ {دِي غِرَافْتْ} الجلسة بالأناشيد، والدعاء، وقُدم الشايُ، والخبز، والكعك لكل الحاضرين من الصبيان والملوك، ولأفراد أعضاء جماعة الكنيسة. وعند المشرب قدمنا ثمانية من رؤساء الكنيسة لإلقاء كل منهم أوجز مقاله بالإنكليزية واليورباوية على الأولاد والحاضرين واحدًا تلو الآخر" ۞.

هذا ما بدأ به التبشير رسالته منذ عهد نزولهم في نيجيريا، من أول مجمع رؤسهم في بَدَاغِري، ثم شبكوا أصابعهم مع المستعمرين حتى غلغلوا المدن، والأرياف، والقرى؛ فبنوا مثل مدارس بَدَاغِري التبشيرية في لاغوس ١٨٤٤م. قبل حضور زعيمهم سَمْوَيْلْ أجَايي كِرَاوْثْرْ اليورباوي الذي كان يُبَلِّغ رسالتهم إلى قومه بلسانهم ليفقهوه، وليقعوا في شبكة النصارى على يد ابن بشرتهم ولسانهم.

۞ البرفيسور عليّ فافُنْوَا: تاريخ التربية في نيجيريا ص ٨٢، فيا حبّذا لو ذكر المرجع شيئًا من مقالات هؤلاء رؤساء الكنيسة التي ألقوها على مستمعيهم فنورد بعضًا منها هنا للتذوق.

ولقد "... ساعد الاستعمار في فتح المدارس، والمستشفيات، والمكتبات، والكنائس. فعمد التبشير إلى إجبار الأولاد على الحضور إلى الكنائس أيام الأحد، وجلدهم من أجل غيابهم عنها، واسقاط من أصرّ على دينه في الامتحانات، وتحريمه الالتحاق بالمدارس العالية، والوظائف الراقية. فاندمج في ركب المسيحية عدد من أبناء المسلمين غير قليل، نتيجة إغرائهم بالمال، والجاه، والوظيفة؛ وتسميم أفكارهم بالأكاذيب المعسولة، وتكريه الإسلام إلى نفوسهم" ۞.

ظل المبشرون يمارسون هذا الأسلوب، وكان المنهج المقرر في تعليمهم قراءة الإنجيل، ومنه تنفصل بقية المواد كحالة منهج المسلمين في قراءة القرآن الكريم. وقد كانوا كثيرين في بلاد أيبو يدرسون الإنجيل، وقد قال سمويل أجَايي كِرَاوْثَرْ لرسل ملك نَوْفِيْ عند زيارتهم لِمِدْرَاسِهم ۞۞ في أوْنِتْشَا ١٨٥٦م قال "نحن النصارى ندرس التعاليم المسيحية". وهو يشير عند هذا القول إلى الفصول، مما يوضّح غرض المبشرين بأنهم ما أرادوا إلا إغراق قارة إفريقية في طوفان المسيحية ۞۞۞.

۞ آدم عبد الله الألوري: مشاكل التعليم العربية في نيجيريا، مرجع سبق ذكره ص ٦.

۞۞ المدْرَاسُ، بوزن المفتاح، بيت يدرس فيه اليهود توراتهم، وجمعه مداريس. فربما يصحّ استعارةً لشيء نفسه للنصارى.

۞۞۞ فافنوا المرجع نفسه، ص ٨٤، وقد استعمل أجايي كراوثر هنا الكلمة العربية {النصارى} ولم يقل المسيحية.

تعددت الفرق التبشيرية في نيجيريا حتى ليرى الواحد بعضها تجادل أخرى أو لا تقيم لها وزنًا، وقد يحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، حيث يحرث كل عند نفسه. فلربّما يتصوره من الصعوبة أن المبشر الأبيض من هذه الفرقة كان يتشاجر مع الأبيض الأخر في فرقة أخرى، ولكن كان ذلك يحدث كثيرًا. وقد كان هذا الخلاف من بادئ أمرهم، حيث كان بين الفرق التبشيرية مصارعة في بَدَاغِري، وأَبَيْكُوتَا، ولاَغُوْسْ، وإبَادَنْ في الأربعينات، والخمسينات، من القرن التاسع عشر، حتى ولا يزال تجري بينهم اليوم منافسات، ومسابقات، ومجارات واحدة بعد أخرى.

المبشرون لا يلقون بالاً في رضى أو سخط آباء تلامذتهم، فإنما وظيفتهم تصبيغ عقائد هؤلاء التلاميذ بالصبغة النصرانية. استمع إلى {هَنْزي فِينِنْ - Henry Venn} يقول: "الواجب عليك - أيها المبشر - أن تغير القلوب، قبل أن تثقف العقول" ۞.

هذا، وإن دلَّ كل ما تقدم من أعمال التبشير على شيء، فإنما يدل على شدة حرصهم في إلحاق الشعوب كافةً بركب المسيحية عن طريق الإغراء بالأموال، والزخارف، والوظائف الداسمة، والمناصب المرموقة. وقد بدأوا فلسفتهم لتأليف القلوب على الأثر القائل: "أفضِل على من شئتَ تكن أميره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره".

۞ فافنوا ، المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.

بدأ التبشير مع الناس بالقطعة الأولى من الحكمة، فصاروا بذلك أمراء المحبّين إليهم المستجيبين لدعوتهم. فاستغرق الناس في القطعة الثالثة فصاروا ممن لا يستطيعون الخروج من شبكتهم بعد، واليوربا يقول بتعبير الشاعر مسعود أوْلاَنْرَيْوَاجُو أدَيْبَوْجُو: " إدخال اليد في الإبريق ليس بصعب، إنما الصعب إخراجها منه ". ثم قلته نظمًا:

وإدخـــال أيـــدٍ في الأبـــاريق هـــينٌ وإخراجهـــا منهـــا فـــذلك أصـــعب

وأما القطعة الثانية من الحكمة، فقد جرَّبها المسلمون الحقيقيون الذين لا يخلطون إيمانهم بظلم، فنجوا من شرورهم، ومكائدهم؛ فكانوا لهم نظراء أكفاء، يرفعون أنوفهم في محضرهم، ويهزّون أكتافهم في مجالسهم، فكانوا لهم مثل البذور الموصونة في الزجاجة، تلمحها الدجاج بدون أن تقدر على إلتقام منها حبّة واحدةً، والقرآن الكريم يقول: { وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} ۞. - صدق الله العظيم -

۞ سورة آل عمران - الآية ١٢٠.